بعد اختتام مؤتمر الدوحة الرابع للديمقراطية والتجارة الحرة

الملتقيات العربية بين أطروحات الإصلاح.. و«التناطح» مع الآخر

كتب/ علي ناجي الرعوي

انعقد في الدوحة يومي ٥و٦ إبريل الجاري المؤتمر الرابع للديمقراطية والتجارة الحرة، وذلك بمشاركة (٤٥٧) سياسياً وأكاديمياً وإعلامياً من (٤٠) دولة عربية وأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية .

وقد شهد المؤتمر الذي اتيحت لي فرصة المشاركة في فعالياته سلسلة من المناقشات والمداولات التي تمحورت حول الإصلاح في المنطقة وقضايا الأمن والسلام ودور الإعلام العربي في تدعيم مسيرة الديمقراطية، إلى جانب ما يتصل بتطوير التعليم ومناهجه في الدول العربية ..

وفي حين يميل عدد من المراقبين إلى مقولة أن «الشرق شرق والغرب غرب» في إشارة إلى التباين الثقافي والتصادم السياسي الواضح بين الجانبين على الميدان، فإن البعض الآخر يعتقد في «وجوب قيام مثل هذه المؤتمرات للحوار العربي الغربي بشكل أعمق وأجد»، كما يرى محمد فايق رئيس المنظمة العربية لحقوق الإنسان، والذي قال : إن الأمريكيين يسمعون نقداً شديداً في هذه المؤتمرات ويلمسون ردة فعل النخب العربية على سياساتهم بشكل مباشر، مما يساعدهم على تعديل سياساتهم .

ورغم أهمية ما حفلت به هذه المناقشات والمداولات من رؤى وأفكار، فقد اعتبر العديد من المشاركين بأن ما جاء في الكلمة الافتتاحية للشيخ حمد بن خليفة آل ثاني أمير قطر كان الأبرز بما انطوى عليه هذا الطرح من وضوح إزاء قضية الإصلاح في المنطقة، والتي تعد من أهم المسائل الحساسة التي تتباين حولها المواقف العربية .

• ما يؤخذ على بعض النخب العربية اكتفاؤها بـ«الثرثرة» بدلاً من الفعل والعمل

• الإصلاحات في المنطقة أصبحت أكثر صعوبة في ظل المعادلة الدولية الجديدة

دعوة قطرية للانفتاح

من الواضح بأن دولة قطر كان لها رؤية محددة إزاء قضية الإصلاحات في المنطقة، ولذا فقد أشار أميرها الشيخ حمد في كلمته إلى أن جذور الإحباط والغضب والأزمة الراهنة التي تعاني منها منطقتنا ليست فقط نتاج الأحداث والتطورات الجارية في فلسطين والعراق، بل أن هناك أسباباً أخرى تعود إلى ماهو أعمق من مشكلات داخلية لاعلاقة لها بالخارج بعد أن تركت هذه المشكلات تتراكم دون علاج وتتكدس دون مراجعة، ولفت إلى انتشار طرح في المنطقة ولسنوات طويلة يسرف في التذرع بما يفعله الآخرون من أجل تبرير التواني عن الإصلاح وتقديم الأعذار عن عدم اللحاق بركب التقدم، ومن بينها أن الإصلاح ليس أمامه إلا الانتظار حتى تتحقق التسوية السلمية للصراع مع إسرائيل، مشدداً في هذا السياق على أن مراجعة كبرى باتت لأزمة في هذا الشأن.

وقال أمير قطر أن التسوية السلمية والإصلاح ليسا بديلين نختار بينهما، وربما هما أولويتان ينبغي العمل من أجلهما معاً بكل جهد وأمانة، على أن يصبح أحدهما دائماً رهناً بالآخر، خاصة أن دولاً ومجتمعات أخرى عانت مثلما عانينا من الاستعمار والتبعية والحماية ولكنها أصلحت نفسها وتقدمت بثبات نحو الحداثة وحكم المؤسسات .

ورأى الشيخ حمد بن خليفة أن آفاقاً واسعة مفتوحة اليوم أمام البلدان العربية برغم تراكمات الأمر وتعقيداته، يمكن من خلالها أن تثبت إنها قادرة على أن تصلح من نفسها وتتقدم لتبني نموذجها الديمقراطي المناسب .

وحول الدعوات القادمة من الخارج إلى الإصلاح، قال أمير قطر أنها تحتاج من أبناء منطقتنا إلى وقفة وتبصر، لاسيما وأن ما يطرح يؤكد من جديد مدى أهمية تلك المنطقة ومركزيتها .

وأضاف : أننا ندعو عند النظر فيما يعرضه الآخرون ألا يسود الارتياب تفكيرنا وألا تطغى اللهفة على مواقفنا، بل الأوجب أن يأتي التعامل متوازناً يسمح بالانفتاح على ما يعرض من أفكار فتتم دراستها بعناية حتى إذا قبلت كان قبولها مطمئنا، وإذا رفضت كان رفضها مبرراً، يعمل العقل قبل النقل والتفكير قبل التنفيذ، فإذا كانت هذه الأفكار ذات مقاصد حسنة، وهذا ما نأمله لتوجب التعامل مع ما يطرح منها بصدر رحب وعقل مفتوح وأوضح أن ذلك في حاجة إلى دور أكبر من المواطن العربي الذي يستطيع من خلال مشاركته المسئولة في صنع القرار أن يساعد بلدانه على تفادي ما يحدق بها من تهديدات ويضمن أن تتضافر جهودها، وتأتي مؤتمراتها على مستوى من الرقي والفهم فلا تتأجل يوماً أو تتعثر .

وانتقد أمير قطر أصحاب الرؤى التي ترى أن هناك تناقضاً بين الديمقراطية والأمن والسلام، وقال : إن هؤلاء يدعون أن توسيع الآفاق أمام المشاركة الشعبية لو تم في هذه المنطقة فلن يأتي إلا بمن يهدد السلام ويقضي على الأمن، مؤكداً أن تبني الإصلاح كان دائماً الطريق، الحق إلى الاستقرار والنهج الصائب في الارتقاء بآمال الأوطان والشعوب، واعتبر أن المشاركة كلما اتسعت زاد إحساس المواطنين بالمسؤولية واستقر في وعيهم مفاهيم الانتماء ومشاعر التفاني من أجل أوطانهم .

إعلاميون عرب يوجهون اتهامات حادة للسياسة الأمريكية

ندوة «دور الإعلام العربي في تدعيم مسيرة الديمقراطية في الدول العربية» التي نظمت ضمن فعاليات المؤتمر شهدت مناقشات ساخنة بين إعلاميين عرب وأمريكيين حيث وجه الإعلاميين العرب اتهامات حادة ضد الولايات المتحدة وسياساتها تجاه العالم العربي.

واتهم بعض الإعلاميين العرب الإدارة الأمريكية بالعمل على تحقيق مصالحها على حساب الشعوب، وشكك هؤلاء الإعلاميون في مصداقية الولايات المتحدة في الدفاع عن الحريات ونشر الديمقراطية، وأكدوا أن واشنطن التي ترفع شعار الديمقراطية والإصلاح تقتل الصحافيين العرب في العراق والذين كان آخرهم مراسل ومصور قناة العربية اللذين قتلهما الجنود الأمريكيون خلال أدائهما مهامهما .

وقال مراد شابين رئيس تحرير أخبار تليفزيون أبوظبي : إن الولايات المتحدة التي تحاول مخاطبة ومغازلة الرأي العام العربي لن تفلح في ذلك في ظل احتلالها للعراق وانحيازها الواضح لإسرائيل ضد الشعب الفلسطيني .

وفي انتقادات غير مباشرة للولايات المتحدة، قال بشارة البون مدير راديو مونت كارلو : إن التوجه إلى الرأي العام يتطلب التخلي عن الادعاء ومهمة الإعلام ليست إعطاء دروس أو تصدير معلومات.

وأكد أن المعرفة لا تنقص المجتمع العربي والقيم الديمقراطية ليست غريبة عليه، معتبراً أن ما يحتاج إليه المواطن هو تأمين قيمة إضافية من حرية التعبير وتعددية الرأي وصوت ينقل الخبر بصدق وأمانة وتأمين تعددية الآراء .. كما أكد ضرورة طرق كل الموضوعات التي تهم المجتمع العربي وتمكين الناشطين من عرض أفكارهم دون رقابة .

وفي مواجهة هذه الانتقادات والاتهامات دافعت السيدة أ.س. أندروز مديرة مكتب البيت الأبيض الأمريكي عن سياسة واشنطن، لكنها اعترفت بوجود أخطاء ارتكبتها الإدارة الأمريكية بشأن قتل بعض الصحافيين العرب، وقالت : إن الحكومة الأمريكية لا ترغب في رؤية أي صحافي قتيلاً، فنحن نحترم الإعلام العربي وهناك أخطاء تحاول الإدارة الأمريكية تلافيها.

وقالت : إن وسائل الإعلام الأمريكية لا تسعى إلى غسل دماغ العالم العربي، وهذا غير حقيقي كما يتردد بشكل واسع ولكننا نسعى للمصداقية والحرية الإعلامية، وهي رسالة نحاول أن ننقلها إلى العالم العربي .

قلب الفعل

وتأتي الجلسة الأكثر استقطابا للاهتمام في المؤتمر تلك، التي رأستها "روز ماري هوليس"، رئيس المعهد الملكي للشؤون الدولية ببريطانيا والتي تمحورت حول مبادرة الإصلاح الأمريكية المعروفة بالشرق الأوسط الكبير، فقد رأت "كلير سبنسر"، التي ترأس إحدى المؤسسات المسيحية في الشرق الأوسط أن "الوقت الذي نُعلّم فيه الناس قد انتهى، وأنه يجب أن يكون لهؤلاء الناس الدور الأكبر في إقامة مشاريع إصلاحهم".

واضافت "سبنسر" أن إحساسا يغلب عليها بأن "الأوروبيين والأمريكيين ينفقون وقتا طويلا في تعليم العالم العربي أصول الديمقراطية، في حين أنه يجب عليهم الاهتمام أكثر بتطوير ديمقراطيتهم الناقصة".

واستعرضت المتحدثة "المثال الإيطالي الذي فكر في إعطاء رئيس الوزراء حصانة مدى الحياة، كما انتقدت الممارسات الإسرائيلية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وقالت إنها تنتمي إلى الجيل الذي حضر انهيار جدار برلين، لكنها تشعر اليوم "بالصدمة لظهور جدار الفصل الإسرائيلي الذي يُقام في وجه الشعب الفلسطيني" واصفة ذلك بأنه "وصمة عار"، ودعت إلى التوقف عن الكلام والمرور إلى الفعل.. وقلب الفعل هو: "الصراع العربي الفلسطيني".

الشراكة المفقودة

وكان المؤتمر قد شهد جلسة أخرى هامة، ناقشت "تأثير الأزمات وعدم الاستقرار على تطور الديمقراطية في الشرق الأوسط" وقد تكرس الخلاف حول هذه القضية بين المتدخلين الأجانب أنفسهم، حيث قالت البرلمانية البريطانية "فيليكس ستاركي" إن بلادها "تضغط على الولايات المتحدة من أجل تعديل مواقفها تجاه قضايا الشرق الأوسط".

لكن زميلتها "كلير سبنسر" ترد عليها بأن "الناس لا يرون أثرا لذلك الضغط سوى مزيدا من استعمال حق النقض، والقرارات المجحفة"، داعية إلى "ممارسة قدر أكبر من الضغط على واشنطن لتأخذ قضايا منطقة الشرق الأوسط على محمل الجد".

وتعود "فيليكس ستاركي" للقول إن لا أحد يرفض الإصلاح الديمقراطي في المطلق، "لكن الناس يصابون بالإحباط ويشعرون بالإذلال عندما يرون التغيير يأتي من الخارج".

واستشهدت البرلمانية البريطانية بآخر استطلاع للرأي في العراق قائلة، إن "٤١٪ من العراقيين يعتقدون أنه قد تم تحريرهم، لكن نسبة مماثلة من العراقيين يعتقدون أيضا أنهم يشعرون بالمهانة لأنهم محتلون"، مستطردة أن "تطورات الأحداث الأخيرة، ترجح ارتفاع نسبة الذين يشعرون بالإذلال، نتيجة الاحتلال"، وخلصت المتحدثة إلى ضرورة "قيام شراكة حقيقية مع قيادات المنطقة للتوصل إلى التغيير المنشود".

وفي نفس الاتجاه، قال "بول ستيفنز"، البروفيسور في سياسة البترول والاقتصاد بجامعة دانديّ، إن "نسبة الاستثمار العالمي في الشرق الأوسط قبل عام ١٩٩٠ كانت في حدود ١٠٪، لكنها تراجعت اليوم إلى ٠,٠٥٪"، وأضاف أن من أسباب ذلك هو "غياب الشفافية وضعف العمالة المؤهلة، ووجود الخوف والإرهاب، وبالتالي، غياب بنية اقتصادية سليمة"، لكنه استطرد قائلا إن "التدخلا الأجنبي لن يستطيع تعديل هذه النسب المتدنية".

العقم التربوي والتعليمي في الوطن العربي

وفي ندوة أختصت بمناقشة أوضاع التعليم بالمنطقة فقد أرجع العديد من المفكرين العرب أسباب تخلف الأوضاع التعليمية في المنطقة العربية إلى غبش الرؤية في ماكان ينبغي على التربية العربية أن تفعله، ولكنها غفلت عنه حين راحت تتعلق بتوقعات أو توهمات غير قابلة للتطبيق، توهمات وتوقعات تولدت في فراغات الطموح ولم تنفرز من حاجات الواقع الإنساني للفرد العربي، وكان آخر صيغها ما ورد في «استراتيجية تطوير التربية العربية» ومبادئها الـ١٢.

مشيرين في هذا الصدد بأن التربية العربية المعاصرة هي من ظلت تعاني «الأدلجة» والابتعاد عن المنهجية العلمية في رسم غاياتها، وكان محض الحديث عن «المبادئ» يجعلها بديلاً من توظيف المؤسسة التربوية في تحقيق التقدم الاجتماعي، ولم ينتبه «المبدأيون» إلى أن قيمة المبادئ في أنها كائنات حية تخضع لما تخضع له الحياة من نمو وضمور، ومن صحة ومرض، ومن مد وجزر وإلهام، وبالتالي فإن علينا في الوطن العربي أن ندرك ذلك، وأن نعي بالتالي أننا لسنا أمام مبادئ لا تقبل إلا التفسير الواحد والوحيد، بل نحن أمام مبادئ قيمتها الكبرى في مرونتها وقدرتها على التكيف مع الأوضاع المختلفة والظروف المتباينة .

مضيفين بأن اهتمام المبدأيين قد انصب في غمرة البحث عن الذات القومية وتأكيدها، على استعادة قيم الأمس المندثر، ولم يكن في ذلك عيب من حيث المبدأ لولا أن إحياء القيم المستعادة من جيولوجية التاريخ لا يمكن أن يتحقق بمجرد التبشير بها والدعوة إليها، بل لابد من فهمها فهماً جديداً في ضوء حاجات الواقع العربي والواقع العالمي، ولا بد أن نمنحها الحياة والديناميكية والقدرة على التأثير عن طريق ترجمتها ترجمة جديدة إلى لغة العصر، لا سيما أن هذه القيم والمبادئ والآداب السامية في روحها وجوهرها، ليست عبر مسيرة الحضارة العربية الإسلامية حلاً متباينة، وتباين فهمها بين الفهم العميق السليم لروحها، والفهم الشكلي الذي أفقدها روحها ومعناها في كثير من الأحيان، بل أن بعض هذه المبادئ لقيت تفسيرات متعارضة، تبعاً للمراحل الزمنية والحقب التاريخية وتبعاً لرغبات المفسرين ومن وراءهم من أولي الأمر وسواهم أحياناً أخرى .

وفي هذا الشأن اعاد البعض التذكير بالدراسات القائلة بأن استعادة قيم الماضي من غير ما تمحيص لها أو تجريب عليها هو من تسبب في خلق فجوة واسعة بين المنظور والممارس من هذه القيم، الأمر الذي ألزم المؤسسة التربوية العربية بـ"أن تقلص هذا الفارق وترمم الفجوة بين قيم وآداب وأهداف تكاد تلخص جوهر الثقافة العربية وروحها وبين واقع ابتعد عنها قليلاً أو كثيراً وشكل ابتعاده عنها جزءاً من أزمة الثقافة الراهنة وسبباً من أسباب حيرته وقلقه وفقدان ذاته وهويته، وهذا ما لم يتحصل أبداً، نعم ان الخروج من هذه الأزمة قد يعين عليه الرجوع إلى تجارب الماضي، غير أن هذا العون يظل محدود الأثر مالم نعترف بالإيقاع المتعالي لتيار التغير في واقع الأشياء، وهذا يعني بعبارة أدق نقد الثقافة القائمة، وهي ثقافة مخاصمة للتغيير ومستعصية عليه حتى الآن، حيث الصراع ما يزال قوياً في الوطن العربي بين التيار الداعي إلى بث الروح العلمية والعقلية الموضوعية والمنهج العقلاني، وبين التيار الذي مايزال مشدوداً إلى عصور التخلف العربي، وهو تيار معاد غالباً للفكر العلمي أو في أحسن الأحوال حائر تجاهه .

وقد جاءت حصيلة هذه المداخلات لتؤكد على أن تخلف سريان الروح العلمية في المجتمع العربي حتى الآن مرجعه إلى أن التربية العربية لم ترب الأجيال الجديدة على وعي قيمة التغير والتغيير في حياة الأمم .

السلبية السياسية

أفضت المناقشات التي جرت في الندوات التي عقدت على هامش مؤتمر الدوحة إلى أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين مستقبل الوطن العربي وحجم المشاركة السياسية للمواطن العربي في كافة القضايا، وقد رصد المشاركون في هذا الجانب عدة تعبيرات ظهرت نتيجة لعدم المشاركة الفعلية لقطاعات كبيرة من المواطنين العرب في الأمور السياسية .. هذه التعبيرات تمثلت في السلبية السياسية، الأغلبية الصامتة والأنانية، أي التغاضي عن كثير من الأمور، أو عدم المشاركة فيها حتى لا يتحمل المواطن أي قدر من المسئولية، كما أن المداولات التي حاولت الوقوف على أسباب عزوف الشباب عن المشاركة السياسية، أظهرت أن كثيراً من الأفراد العاديين لا يعرفون معنى كلمة حزب، أو ماهي وظيفة الحزب السياسي، مؤكدين في هذا الصدد بأن الثقافة السياسية لا تعني الاهتمام بالقضايا الكبرى، القومية والعالمية، والإلمام بها فقط، بل تشمل الاهتمام بالقضايا العامة التي تشغل المجتمع ككل، باعتبار أن السياسة الداخلية التي تهم المواطن لا تنفصل عن القضايا العامة التي تشمل العالم كله .

وأشارت النقاشات إلى أن تحقيق المشاركة السياسية المنشودة يحتاج إلى توافق القطاعات الشعبية على اختلاف توجهاتها حول القضايا الرئيسية، باعتبار أن ذلك سينتقل بها من التعبير الجزئي للفرد إلى البحث عما يهم المجتمع، موضحة بأن التواصل والاستمرار يأتي من مشاركة جميع القوى في القرار، سواء بالتأييد أو المعارضة أو النقد، فكلما استوعبت المعارضة دورها الصحيح والسليم كلما استطاعت أن تحقق التوازن السياسي والاجتماعي داخل أوطانها .

وتطرق بعض المشاركين إلى أن غياب المواطن «المسيس» يعد قيداً، ونقطة ضعف في مسيرة الوطن العربي ككل، لكن المواطن عادة إذا ما أحس بالانتماء لوطنه وأرضه، التي يعيش عليها يصبح «مسيساً» يشارك في كافة النواحي، وله رأي يريد أن يؤخذ به، ودعا المشاركين إلى تنمية الوعي السياسي لدى المواطن، حتى يتمكن من ممارسة دوره الفاعل، مشيرين إلى أن العمل السياسي ليس ترفاً.. فمن أركان المجتمع المدني إطلاق الحريات بما يمكن من المشاركة في صناعة المستقبل، ومن هنا يجب أن تتحول الأحزاب السياسية العربية إلى مدارس لخلق الكوادر السياسية، التي لابد أن تكون من الشباب والابتعاد عن «الأبوية» التي تجعل من الأحزاب جامدة في حراكها.

وجهة نظر خاصة حول ملتقيات الحوار

● إذا كانت ملتقيات الحوار التي انتعشت في المنطقة العربية خلال الفترة الماضية وتحديداً بعد ١١ سبتمبر، وعلى خلفية التحديات الكبيرة التي تواجه الوطن العربي، قد شكلت في مجملها معبراً وواجهة مهمة للحوار وتبادل الآراء مع الآخر، حيال القضايا المتصلة بعلاقة الشرق مع الغرب، ولما من شأنه فتح قنوات التفاهم، بعيداً عن التعصب والانغلاق .. فإن ما يؤخذ على بعض النخب السياسية والفكرية العربية المشاركة في هذه المنتديات والملتقيات .. هو انصرافها إلى ممارسة جلد الذات ونعت مجتمعاتها بالتخلف والمبالغة في التشاؤم إزاء قابلية الأمة العربية لمجريات التغيير التي تفرضها تحولات العصر، الأمر الذي تبدو فيه هذه النخب متمترسة خلف بعض الشعارات وركوب موجة الأطروحات الآتية من الخارج، دون أن تسعى إلى تقديم البدائل الموضوعية التي تقارب واقع المجتمع العربي وتسمح له بالإنطلاق نحو تحديث بنيته السياسية والثقافية والاقتصادية وبناء مشروعه النهضوي على قاعدة متوازنة .

والمثير حقاً هو أن هذه النخب السياسية العربية لاتتورع عن اصدار الإدانات المسبقة التي تحكم بها الأمة دون أن تكلف نفسها عناء البحث في التفسير المقنع للأسباب والعوامل الرئيسية التي كانت وراء هذا الإنحدار الذي أصاب امتنا في مقتل مع أن الحقيقة بأن ما وصل إليه العرب من ضعف وتمزق وشتات لم يكن سوى محصلة لاندفاع نخبهم السياسية والفكرية وراء مصالحهم الذاتية والأنانية التي انستهم واجباتهم ومسئولياتهم نحو هذه الأمة.. وبالتالي فإنه ولكي تثمر الحوارات التي تدار في مختلف المنتديات والملتقيات المنعقدة في الوطن العربي فإننا سنحتاج أصلاً إلى الاتفاق مع الآخر حول أسس الشراكة الإنسانية وقوانينها وآلياتها ..

ولعل الشرط الأول للمضي في هذه الشراكة أن لايكون عقدها عقد إذعان يفرضه القوي على الضعيف والغني على الفقير .. فعقود الإذعان لا تبني شراكة حقيقية، بل علاقة ظاهرية سرعان ما يتملص منها من أجبر عليها..

ولا يغيب عن ذهن أي متابع أن الظروف التي تمر بها أمتنا العربية وما يعتمل في سطح منطقتنا من تطورات دراماتيكية باتت تسير باتجاه إخضاع هذه الأمة لمزيد من الإملاءات المجحفة التي تخل بأساس وجودها وتكوينها وهويتها الحضارية ..

وهذا السؤال الذي لايفكر الطرف الآخر بالإجابة عليه، إنما هو الذي يجعل من مقومات التغيير والتطور في أطروحات الآخر، وعندما يتجاهل الطرف الآخر الإجابة على هذه المعضلات فإن ذلك هو من يخرج بالحوار عن منهجيته المثمرة التي تفضي إلى الإقناع والفهم المشترك وإرساء الثقة محل التوجس والشكوك .

• «ظاهرة الجمود» في الوطن العربي.. من المتسبب فيها..؟ انحسار التعليم أم منظومات الفكر والسياسة؟؟